الفصل الحادى والعشرون

حرب الاستنزاف
أرغمت واشنطن على تغيير موقفها السياسى

- إن تصميمنا على تحرير أرضنا هو الحق الشرعى الأول لأى أمة تعرف لكرامتها قيمة
- مصر تساير المبادرة الأمريكية
- سنة ١٩٦٩ عاصفة فى تاريخ العلاقات الإسرائيلية الأمريكية

حينما وجه عبد الناصر نداءه إلى الرئيس نيكسون في أول مايو ١٩٧٠ استجابة للرغبة الأمريكية السابقة بأن يختبر جدية الولايات المتحدة فى هذه المرة، كان حريصا على أن يقول فى نفس الخطاب: «إننى أقول للرئيس نيكسون: إن هناك لحظة فاصلة قادمة فى العلاقات العربية الأمريكية إما أن تكرس القطيعة إلى الأبد، وإما أن تكون لها تأثيرات خطيرة أوسع من ذلك وابعد، إن تصميمنا على تحرير أرضنا هو الحق الشرعى الأول لأى أمة تعرف لكرامتها قيمة، اننى أتوجه بهذا كله إلى الرئيس نيكسون لأن اللحظة دقيقة، ولأن العواقب بالغة الخطورة».

وقد جاءت المبادرة الأمريكية الجديدة استجابة لتطورات جرت، وتحسبا لتطورات يمكن أن تجرى وشيكا، وقد أراد عبد الناصر إتاحة الفرصة كاملة أمام تلك المبادرة، لكن ثقته الوحيدة كانت تتركز فى الحل العسكرى، وقد تأكد شعوره هذا أكثر وأكثر بمجرد أن بدأ الأمريكيون فى مسايرة الصراخ الإسرائيلى من حائط الصواريخ المصرى والزعم بأن مصر خرقت ترتيبات وقف إطلاق النار، فحتى لو كان هذا قد حدث جدلا، فإن الولايات المتحدة لم تخطر مصر بالمضمون العملى لتلك الترتيبات إلا بعد أن توقف إطلاق النار فعلا بستة وثلاثين ساعة– وهو الأمر الذى يعكس فى حد ذاته مدى التلهف الامريكى الإسرائيلى على التوصل أولا لوقف إطلاق النار بأى ثمن.. ولكنه يعكس أيضا احتمالا آخر بعدم جدية الالتزام الامريكى بالتقدم نحو التسوية الشاملة بحذافيرها، وفى كلتا الحالتين فإن مسئولية عبد الناصر أولا هى حماية قواته المسلحة وتوفير أقصى إمكانيات النجاح أمامها وهى تستعد لخطط المستقبل الوشيك.

ومن الملفت هنا أن خبيرا أمريكيا يعمل فى مجلس الأمن القومى الأمريكى، وهو هارولد سوندرز، كتب تقريرا سجل فيه بنظرة ثاقبة أنه: «يبدو أن شبكة الصواريخ الدفاعية على القناة تهم المصريين بأكثر مما تهم محادثات السلام».

وفى اللحظة الراهنة سوف تساير مصر هذا الفهم الامريكى عن «محادثات السلام».. ومن هنا جاءت الصورة التى شرحها عبد الناصر للدكتور محمد حسن الزيات بعد تكليفه بتمثيل مصر فى محادثات يارنغ.

لكن تلك المحادثات لم تبدأ فورا فى نيويورك كما هو مقرر طبقا لمبادرة روجرز، ولكنها ستبدأ فقط بعدها بأربعة أشهر جرت خلالها أحداث جسام فى الشرق الأوسط، لقد حاولت

إسرائيل التملص من مبادرة روجرز ولكن الرئيس نيكسون لم يسمح لها بذلك، وفى اللحظة التى لم يعد فيها أمام إسرائيل من مفر سوى الإذعان وتعيين ممثلها فى مباحثات يارنغ حتى يبدأ الاتفاق على الانسحاب الإسرائيلى من سيناء وقطاع غزة والضفة الغربية طبقا لمبادرة روجرز- جاء الفرج لإسرائيل.. فجأة.

مفاجآت لصالح إسرائيل

إن الطائرات المدنية الأربع التى تم اختطافها ابتدأ من ٦ سبتمبر واحتجاز ركابها الخمسمائة والتهديدات المضادة بين منظمة التحرير الفلسطينية والملك حسين سرعان ما تحولت إلى حرب أهلية دامية فى الأردن، وخلقت تلك الحرب لإسرائيل دورا كانت فى انتظاره وعبأت الولايات المتحدة أسطولها السادس فى البحر الأبيض المتوسط، وجاء الملوك والرؤساء العرب إلى القاهرة فى اجتماع طارئ دعا إليه عبد الناصر، والقيادات الفلسطينية التى كانت تهاجم عبد الناصر علنا باعتبار انه «خائن» و«باع القضية الفلسطينية» تم إنقاذ معظمها من الموت بأعجوبة بفضل عبد الناصر!

٢٨ سبتمبر ١٩٧٠، بعد أحداث مفاجأة- ومريبة- فى الأردن بين الملك حسين وياسر عرفات ودماء تسيل، وقمة عربية طارئة فى القاهرة لوقف المذابح ونجاح القمة، ومغادرة جميع الرؤساء والملوك عائدين إلى بلادهم، ومغادرة أمير الكويت القاهرة عائدا إلى بلاده باعتباره آخر الضيوف المغادرين الذين ودعهم جمال عبد الناصر فى المطار بنفسه كالآخرين أصبح الخبر المدوى عالميا هو: رحيل جمال عبد الناصر، أسبوع واثنان من الإجراءات وتولى أنور السادات رئاسة الجمهورية. لقد أصبح أنور السادات هو خليفة جمال عبد الناصر فى السلطة.

فى أكتوبر ١٩٧٠ كان وليم روجرز وزير الخارجية الأمريكي موجودا فى نيويورك لحضور الدورة السنوية العادية للجمعية العامة للأمم المتحدة، وبمناسبة وجود محمود رياض وزير خارجية مصر أيضا فقد دعاه روجرز إلى الاجتماع به فى جناحه الخاص بالفندق «فندق والدورف استوريا»، بعد دقائق من بدء الاجتماع دق جرس التليفون ورفع روجرز السماعة ليجد أن المتحدث إليه هو الرئيس (الامريكى) ريتشارد نيكسون.

روجرز يرد: نعم سيادة الرئيس، بالضبط أنا الآن مجتمع مع مستر رياض.

قال نيكسون: أرجوك أن تبلغه عزائى لوفاة الرئيس جمال عبد الناصر. إننى اعتز بمعرفتى بهذا الرجل العظيم والذى تبادلت معه الكثير من الرسائل والأحاديث، أرجوك

تكـرر عزائى للوزير المصرى وللشـعب المصرى، ولكن.. اسمـع.. دعنى أتحدث إلى الوزير رياض شخصيا.

ناول روجرز السـماعة لمحمود رياض فبادره نيكسـون بتكرار العـزاء مؤكدا مرة أخرى مدى الاحترام الذى كان يحتفظ به للرئيس جمال عبد الناصر ومضيفا: «لولا أننى استلمت الرئاسة والعلاقات الدبلوماسية مقطوعة بين بلدينا لكنت جئت إلى القاهرة بنفسى للمشاركة فى الجنازة، لقد تابعتها على شاشـات التلفزيون ولم أفاجأ بأنها أضخم جنازة شـاهدتها على الإطلاق، مرة أخرى أكرر لك وللشعب المصرى عزائى.

انتهت المكالمة وبدأ حديث العمل، مستر روجرز يبلغ محمود رياض من جديد بالشكاوى الإسـرائيلية من حائط الصواريخ المصرى، فى هذه المرة يضيف روجرز: لدينا بعض الصور التقطناها نحن جوا بوسائلنا الخاصة ترجح دخول بعض الصواريخ إلى مواقعها بعد سريان وقف إطلاق النار، وأنا على استعداد لتقديم تلك الصور إليكم.

قاطعه محمود رياض قائلا: لسـت على استعداد لتبادل الصور والاتهامات، يمكننى أن أكرر لك أننا لم نخرق ترتيبات وقف إطلاق النار ولم نحرك الصواريخ، على العكس، لدينا نحن أيضا معلوماتنا الخاصة بأن إسـرائيل أقامت تحصينات جديدة فى سـيناء بعد وقف سريان إطلاق النار.

أشـار روجرز من طرف خفى إلى أنه من الممكن تهدئة إسرائيل بسحب صاروخ أو اثنين وبذلك يعود يارنغ- ممثل السكرتير العام للأمم المتحدة- إلى مهمته.

قال محمود رياض: مسـتر روجرز.. قلناها لكم فى أغسـطس وقلناها لكم فى سـبتمبر والآن أقولها لكم من جديد.. نحن لن نسحب صاروخا واحدا، أما عن الأمم المتحدة فكلانا أكثر معرفة بالحقائق، كل الأمم المتحدة معنا، وكلها تقر بان إسـرائيل قوة احتلال عليها الانسحاب الكامل من كل شبر ارض عربية.. بغير لف ولا دوران.

وانتهت مشـكلة الصواريخ المصرية بتضامن المجتمع الـدولى مع مصر فى قرار الجمعية العامـة للأمم المتحدة فى ٥ نوفمبر ١٩٧٠، وقام وليم روجرز بحث السـفير يارنغ على ألا يكتفى بدور الوسيط وإنما عليه المبادرة بوضع برنامج محدد لتنفيذ القرار ٢٤٢- على الأقل بالنسـبة لمصر كبداية، وأخطر يارنغ مصر مقدما بمشـروعه. وكما هو متوقع جاء مشـروع يارنغ مقررا انسحاب إسرائيل الكامل من سيناء وقطاع غزة.

إن مشـروع يارنغ هـذا، والذى كان محركه مـن وراء الكواليس هو وليـم روجرز وزير الخارجية الامريكى، أعلن رسميا فى الثامن من فبراير سنة ١٩٧١.

لكن أنور السـادات كان قد أعلن من قبلها بأربعة أيام فقط مبادرته الخاصة به، والتى أصبحت تمثل انقلابا صامتا فى السياسـة المصرية، فهى لا تطمح إلى أكثر من انسـحاب إسـرائيل لبضعة كيلو مترات شـرق قناة السـويس، مقابل تعهد مصر بإعـادة فتح القناة للملاحة الدولية.

وفى نفس الشهر- فبراير ١٩٧١- استقال يارنغ من مهمته كممثل للسكرتير العام للأمم المتحدة لتنفيذ القرار ٢٤٢، بعد أن أخطرته إسرائيل بأنها لن تنسحب إلى الحدود المصرية مع فلسطين تحت الانتداب- وهو ما لم تجرؤ إسرائيل على أن تقوله من قبل، حتى وهى فى ذروة نشوتها الكبرى فى أعقاب يونيو ١٩٦٧.

ويومها «كان الرجل- يارنغ- مهذبا، فلم يردد ما سمعه الآخرون.. لماذا توافق إسرائيل على اقتراحه بالانسحاب الكامل، إذا كان رئيس جمهورية مصر يقترح فى نفس الشهر أن تقوم إسرائيل بانسحاب جزئى؟!»- على حد تعبير محمود رياض فى مذكراته.

وبعد قليل سيقول السادات: إنه كان يستهدف بمبادرته الخاصة الجزئية فى ٤ فبراير ١٩٧١ إعلان «انتهاء مبادرة روجرز» لأنه «لابد من إنهاء مبادرة روجرز».

كيسنجر يكسب الجولة

ولقد حدث هذا فعلا، فقد حسم الصراع بين وليم روجرز وهنرى كيسنجر داخل الإدارة الأمريكية، بعد أن زال خطر الحرب بين مصر وإسرائيل، لصالح هنرى كيسنجر تدريجيا، وروجرز نفسه لم يعد يستطيع الاستمرار فى الدعوة إلى تنفيذ المبادرة التى اقترنت باسمه.. فـى الوقـت الذى أصبح فيه الطرف الأول المسـتفيد منها، وهو مصـر، يعمل على «إنهاء مبادرة روجرز»!

لكن إسـرائيل كانت تعرف ما لم يشـأ السـادات أن يعرفه، لقد ظلت تساوم مع السادات، وتزين له طريق الحلول المنفردة، وتشجع استجابته لها، وتقسم علنا بأغلظ الأيمان على أنها لن تنسحب بشكل كامل أبدا من سيناء، فما بالنا بالضفة الغربية والجولان وحقوق الفلسطينيين؟

كان هذا يجرى علنا، ولكن السـر كانت إسـرائيل تدرك جيدا إبعاد الحقيقة، فلمدة ثلاثين شـهرا بعدها، ظلت إسرائيل فى جميع مباحثاتها غير المعلنة مع الولايات المتحدة

تصر على طلب سياسي: أن تعطيها الولايات المتحدة ورقة رسمية تسجل فيها تراجعها النهائى عن مبادرة روجرز!

وسواء كان السادات قد قام «بإسقاط» و«إنهاء» مبادرة روجرز عن معرفة بأبعادها، فإن مبادرة روجرز كانت تقرر: «انسحاب إسرائيل إلى حدود ١٩٤٨ على كل الجبهات (المصرية والأردنية والسورية). وهذا الانسحاب يشمل المستوطنات المدنية، بقدر ما يشمل الجيش الإسرائيلى»- تلك هى اعترافات موشى ديان وزير الدفاع الإسرائيلى نفسه بعدها بتسع سنوات فى الصفحة ١٨٥ من مذكراته.

وسواء كانت القيادات الفلسطينية التى رفعت فى سنة ١٩٧٠ شعارات طنانة عن «الخيانة» وعن «بيع القضية الفلسطينية» تعرف أو لا تعرف، فإن مبادرة روجرز كانت تقرر: «انسحاب إسرائيل من كل جزء من المناطق المدارة على وجه التحديد»- أى الضفة الغربية وقطاع غزة.

وبمقتضى مبادرة روجرز فإن الولايات المتحدة «تتعهد بأن تكون الحدود بين إسرائيل والأردن متطابقة مع خط الهدنة لسنة ١٩٤٩» وأن تتحرر القدس العربية من الاحتلال الإسرائيلى حيث إن «الأردن سيسيطر على النصف الشرقى من المدينة»- تلك أيضا اعترافات إسحاق رابين بعدها بسنوات فى الصفحة ١٢٦ من مذكراته.

وكان انسحاب مناحيم بيغن وكتلته الوزارية من حكومة غولدا مائير لأنه أدرك أن استمراره فى الحكومة «يعنى الموافقة على مبدأ الانسحاب من كل الاراضى العربية المحتلة»- حسب إقرار عيزرا ويزمان الذى استقال معه لنفس السبب.. فى مذكراته هو الآخر.

من هنا اعتبر مناحيم بيغن فى وقتها أن موافقة إسرائيل على مبادرة روجرز معناها اتفاقية «ميونيخ جديدة فى الشرق الأوسط».

ومن هنا أيضا، وبعد سنوات من تعامل إسرائيل مع السادات ودخولهما معا مسالك مختلفة، أصبح أبا ايبان يقرر أن مبادرة روجرز هى «بلا شك واحدة من الأخطاء الكبرى للدبلوماسية الدولية فى فترة الحرب».

وفى حينها اعتبرت غولدا مائير أن مبادرة روجرز هى «كارثة لإسرائيل».. لأنها لا تتضمن فقط انسحاب إسرائيل من كل شبر احتلته فى سيناء وغزة والضفة الغربية، ولكن أيضا لأن هذا سيتم فى مقابل ورقة تودعها مصر والأردن (ثم سوريا فيما بعد) فى سجلات الأمم المتحدة بإنهاء حالة الحرب، وهو ما يسميه إسحاق رابين «حالة رسمية

من السلام» لا تتضمن على الإطلاق أى اعترافات مع إسرائيل على أى مستوى، ولا حتى مفاوضات مباشرة.

السنوات الثلاث الفاصلة

تلك هى مبادرة روجرز فى أبعادها الكاملة على ضوء الوثائق، وبعد أن كانت غولدا مائير تقرر فى ديسمبر ١٩٦٩ أن «أى حكومة إسرائيلية تتبنى تنفيذ مثل هذه الخطة- خطة روجرز- سترتكب بذلك خيانة لبلدها».. فإنها اضطرت فى يوليو وأغسطس ١٩٧٠ إلى الإذعان رسميا، وإخطار الولايات المتحدة بإذعانها هذا (وهو ما أدى إلى خروج مناحيم بيغن وكتلته من الحكومة) لأن ثمن الرفض أصبح هو استمرار حرب الاستنزاف المصرية.

إن مبادرة روجرز لم تكن مجرد الورقة التى وجهها وليم روجرز إلى مصر والأردن وإسرائيل فى ١٩ يونيو ١٩٧٠، فتلك الورقة كانت مجرد الجزء التنفيذى لخطة روجرز التى تم إخطار مصر بها فى نوفمبر ١٩٦٩، وتم إخطار الأردن بها فى ديسمبر ١٩٦٩ إلا بالقليل جدا من خطوطها العريضة.

وحينما تعهدت الولايات المتحدة رسميا فى مبادرة روجرز بانسحاب إسرائيل من كل شبر من الأراضى العربية، وكذلك بحقوق الفلسطينيين، فإنها لم تكن تفعل ذلك مطلقا لأنها أصبحت فجأة أقل انحيازا لإسرائيل، أو أكثر ميلا لعبد الناصر، لقد فعلت ذلك لأن الرئيس الامريكى ريتشارد نيكسون يريد أولا المحافظة على المصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط- وإسرائيل إحدى تلك المصالح- على ضوء التغير الذى عملته مصر فى توازن القوى.

فمصر المهزومة فى يونيو ١٩٦٧، وبلا قوات مسلحة وتصميم أمريكى على «إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط»، استطاعت بإرادة فولاذية وتصميم لا يقهر وبتضحيات وآلام لا حدود لها، أن تحدث تغييرا جوهريا فى توازن القوى الإقليمى خلال السنوات الثلاثة الفاصلة من يونيو ١٩٦٧ إلى يونيو ١٩٧٠.

حرب الاستنزاف

وكان العامل الأول، والمحورى، فى هذا التغيير هو حرب الاستنزاف المصرية، التى كانت عنصر التفاعل الأساسى فى كل ما تلا ذلك من تغييرات.

فخلال مايو ويونيو ١٩٦٩ كان هدف إسرائيل هو «أن تسحق رغبة مصر فى المضى فى حرب الاستنزاف، فطالما استمرت تلك الحرب فإن الولايات المتحدة ترى أن مركزها فى الشرق الأوسط يتدهور بشكل ثابت، وإسحاق رابين فى موقعه كسفير لإسرائيل فى الولايات المتحدة يقول: «لقد كنت أرى إلى أين تقود حرب الاستنزاف (المصرية) أميركا، وشعرت بالرعب».

وبعد أن كانت إسرائيل تحلم فى أعقاب حرب يونيو ١٩٦٧ بمفاوضات مباشرة مع العرب، وبعلاقات دبلوماسية واقتصادية مع مصر والأردن وسوريا، وبعد أن أعلن موشى ديان وزير الدفاع الإسرائيلى أن كل ما سيفعله هو الانتظار إلى جوار التليفون فى انتظار المكالمة الحتمية من الملك حسين، أو ربما جمال عبد الناصر، فإن كل هذا تبخر بسبب حرب الاستنزاف وتضحيات رجال اليوم السابع، وأصبحت الولايات المتحدة مضطرة إلى أن تصارح إسرائيل رسميا بأنه: «إذا أصبحت الصداقة مع إسرائيل هى كل ما يتبقى للولايات المتحدة فى الشرق الأوسط، فإن هذا سيصبح نكسة وكارثة للسياسة الأمريكية».. وبأن الولايات المتحدة لا تود أفضل من حصول إسرائيل على حدود مفتوحة وعلاقات دبلوماسية مع الدول العربية ولكن: «إننا لا نستطيع أن نرغم المصريين على أن يحبوكم.. يجب علينا أن نكون واقعيين». ومنذ ديسمبر ١٩٦٩، وفقط بسبب حرب الاستنزاف المصرية، بدأ المسئولون الأمريكيون يقولون لإسرائيل بصراحة: «إن هذا السلام (الذى تريدونه وتحلمون به) لم يعد حقيقة ممكنا الآن».

انسحاب شامل

ولم تكن حرب الاستنزاف المصرية، منذ بدايتها، تستهدف مجرد إرغام إسرائيل على الانسحاب من سيناء. فسيناء، وكذلك قطاع غزة، كانت معروضة على مصر وبتعهد أمريكى منذ ٢ نوفمبر ١٩٦٨، وإسرائيل لم تكن لتجرؤ على اقتراح جعل سيناء، أو جزءا من سيناء، منزوعة السلاح، طبقا لما عرضه رئيس وزراء إسرائيل علنا فى فبراير ١٩٦٩، فنتيجة لإصرار مصر على «أن ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة» حاولت إسرائيل تقديم كل تلك الإغراءات لمصر مبكرا وعلنا ورسميا، ولكن حرب الاستنزاف المصرية استمرت لأن مصر رفضت الثمن السياسى لتلك العروض، وهو عزل مصر عن العالم العربى. وقد جاءت لحظات فى حرب الاستنزاف بدا فيها أن لإسرائيل اليد العليا، وفى المرة الأولى (نوفمبر

١٩٦٨) اضطرت مصر إلى إيقاف الحرب أربعة شهور، أما المرة الثانية فقد استمرت مصر فى الحرب برغم نجاح إسرائيل فى يناير ١٩٧٠ فى تدمير جانب كبير من الدفاع الجوى المصرى غرب القناة، ووصولها بغاراتها ضد المدنيين فى العمق إلى مشارف القاهرة.

كان السبب الأساسى إذن فى مبادرة وخطة روجرز يرجع إلى حرب الاستنزاف المصرية ودماء الشهداء المصريين فى تلك الحرب- من الفريق عبد المنعم رياض رئيس هيئة أركان حرب الجيش الذى سقط شهيدا على حافة قناة السويس.. إلى أطفال مدرسة بحر البقر- هى التى اضطرت الولايات المتحدة إلى التقدم أخيرا بذلك التعهد الرسمى الذى مثلته مبادرة وخطة روجرز. إن حرب الاستنزاف لم تكن امتحانا عصيبا فقط للمقاومة المصرية.. لكنها كانت أيضا تعبيرا عن الإرادة السياسية الفولاذية التى حركتها، وتحمل الشعب كله تضحيات جساماً اقتناعا بصحة القضية التى تتم الحرب بسببها.

تهديد المصالح الأمريكية

ومن هنا يجئ العامل الثانى الذى صنع خطة ومبادرة روجرز.. فصلابة الإرادة المصرية، أدى إلى تفاعلات أوسع نطاقا فى العالم العربى، وحينما سارع وليم روجرز وزير الخارجية الامريكى إلى التقاط منبر محدد لكى يعلن منه على وجه السرعة خطته الأولى فى التاسع من ديسمبر ١٩٦٩، كان هذا يحدث بتكليف مباشر له من الرئيس ريتشارد نيكسون، وليس تجاوزا له كما يحاول هنرى كيسنجر الإيحاء كذبا فى مذكراته.

لقد كان السبب ببساطة، وعلى حد تعبير أبا أيبان وزير الخارجية الإسرائيلى وقتها، إنه: «فى واشنطن كانت هناك خشية من أن مؤتمرا مقررا للزعماء العرب فى الرباط فى شهر ديسمبر سوف يتبنى قرارات معادية للمصالح الغربية، ولمنع الإضرار بالمصالح الأمريكية قررت وزارة الخارجية، فى ظل وليم روجرز، أن تقدم لفته استباقية إلى العالم العربى، و (هكذا) نشر روجرز فى ٩ ديسمبر بيانا سياسيا يؤيد انسحاب إسرائيل إلى خطوط ما قبل سنة ١٩٦٧ بالنسبة لمصر والأردن فى إطار تسوية سلمية».

وكما هى العادة، فغن المصادر الإسرائيلية- وايبان هنا نموذج لها- لا تقدم الحقيقة كاملة.. أبدا، والحقيقة هى أنه بسبب حرب الاستنزاف المصرية، وإدراك العالم العربى لصلابة مصر فى المقاومة، أصبح العداء للمصالح الأمريكية فى العالم العربى يتزايد بشكل ثابت، وفى مايو ١٩٦٩ وقع انقلاب عسكرى فى السودان، مقرر من اللحظة الأولى ارتباطه

بمصر، وفى أول سبتمر من نفس السنة سقط واحد من أكثر النظم السياسية فى العالم العربى ارتباطا بالولايات المتحدة وبالمصالح الغربية، وهو نظام السانوسى فى ليبيا، ومرة أخرى خرج الانقلاب الجديد ليعلن من اللحظة الأولى ارتباطه بمصر، وأصبحت تلك مؤشرات لمن يقرأون الأحداث فى واشنطن باتجاهات المستقبل، التى لابد من احتوائها قبل أن تمتد النيران إلى العالم العربى كله.

تطورات الموقف الدولى

أما العامل الثالث المحرك فى مبادرة وخطة روجرز، فقد كان يتعلق بتطورات الموقف الدولى، إن الاتحاد السوفياتى ساند مصر فى إعادة بناء قواتها المسلحة، وفى ناحية من النواحى، فإن هذا اللقاء فى المصالح كان حتميا، فمصر هى المفتاح الأساسى إلى الشرق الأوسط، وقد وعى السوفيات هذا الدرس مبكرا من قبلها بسنوات.

ومن ناحية أخرى، فإنه مع الدعم الامريكى الكامل لإسرائيل، لم يعد أمام مصر مصدر آخر للتسلح، بالكميات والنوعيات والسرعات المطلوبة، سوى القوة العظمى التالية، وهى الاتحاد السوفياتى، طالما أن مصر جادة حقا فى الثأر عسكريا لهزيمة يونيو ١٩٦٧.

وفى لقاء المصالح هذا- وتلك لغة أساسية فى أى تعامل سياسى- كان جمال عبد الناصر يلاحظ أن: «هناك خلافا داخليا فى القيادة السوفيتية حول الشرق الأوسط، كما أن الأمريكيين لعبوا بهم وخدعوهم، ولذلك ترى القادة السوفيات أحيانا متشددين، وأحيانا أخرى متساهلين». ولقد كان عبد الناصر مستعدا لتحمل كل جهد ممكن، ليس فقط لكى يتعامل مع البيروقراطية السياسية السوفيتية، ولكن أيضا مع البيروقراطية العسكرية، فى الواقع أن جمال عبد الناصر، فى أعقاب حرب يونيو ١٩٦٧، جاء بكل الكتب الأساسية التى يتم تدريسها فى المعاهد العسكرية العليا بالاتحاد السوفيتى، لكى يسهر على قراءتها كل ليلة، حتى يستوعب طريق التفكير العسكرى السوفياتى، وبالتالى يستطيع أن يناقش السوفيات من أرضية صلبة.

وكان عبد الناصر يأخذ من السوفيات أقصى ما يمكنه من أسلحة، نوعا وكمية، ومع ذلك كانت تظل هناك بعض نوعيات الأسلحة والاحتياجات العسكرية غير متوفرة لدى السوفيات، فكانت مصر تحصل عليها سرا من الغرب، من خلال الأردن وليبيا ودول أخرى، وعلى سبيل المثال احتاجت القوات المسلحة المصرية إلى نوع من المدافع الرشاشة القصيرة نصف بوصة للدفاع ضد الطائرات على ارتفاعات شديدة الانخفاض، وكذلك

عربـات نصـف جنزير، ولم يكن هذان النوعان متوافرين فى الاتحاد السـوفياتى أو الدول الاشتراكية، فاشترتها مصر سرا من بريطانيا وألمانيا الغربية منذ أواخر سنة ١٩٦٧.

وحينمـا ظهر مـن التدريبات المتكررة على العبور إلى سـيناء ضمـن الخطة «جرانيت» الموضوعة للهجوم الشـامل الذى أصبح مقـررا أن يتم فى ربيع ١٩٧١، أن فتح ثغرات فى السـاتر الترابى المرتفع فى الجانب الشرقى للقناة لابد أن يتم فى أقصر وقت ممكن، ابتكر المهندسون المصريون فكرة استخدام مضخات لدفع المياه بقوة كافية لفتح الساتر الترابى، إن الفكرة جرى استيحاؤها من تجارب العمل فى السد العالى بأسوان، واستقر الرأى فى سنة ١٩٦٩ على أنه الحل الناجح لشـق الثغرات فى السـاتر الترابى شرق القناة لحظة العبور، وعلى الفور بدأت مصر فى اسـتيراد النوعية المطلوبة من المضخات سـرا من عدة دول فى أوربا الغربية، على أساس أنها مطلوبة لأعمال مدنية.

سلاح الردع

وقد ظل عبد الناصر يضغط على السوفيات لإمداد مصر بعدد من الطائرات القاذفة طويلة المدى- هى عشر طائرات أسماها السادات فيما بعد «سلاح الردع»- ظل السوفيات مترددين فى البداية، وأخيرا وافقوا، بشـرط أن تظل الطائرات ذاتها فى الاتحاد السـوفياتى وتصل إلى مصر فى خلال ست ساعات من طلبها.

ومع ذلك لم يكتف عبد الناصر بهذا الحل، فحينما قامت ثورة فى ليبيا فى أول سبتمبر ١٩٦٩ حث قيادة الثورة الجديدة على عمل صفقة مع فرنسـا لشـراء طائرات ميراج- وهى طائرات طويلة المدى بنفس كفاءة طائرات الفانتوم الأمريكية. ووافقت فرنسـا فعلا فى سنة ١٩٧٠ على توريد خمسـين طائرة ميراج إلى ليبيا، بعد أن اشـترطت بالطبع عدم نقلها إلى طـرف ثالث، مع ذلـك كان الطيارون المصريون هم الذين ذهبوا إلى فرنسـا للتدريب على الميراج، على أنهم ليبيون ويحملون جوازات سفر ليبية.

ومبكـرا (فى ١٤/ ٢/ ١٩٧٠) طبقا لمحضر اجتماع عقده العقيد معمر القذافى مع جمال عبد الناصر فى القاهرة، أشـار عبد الناصر إلى العقد الفرنسى بتوريد الخمسين طائرة ميراج إلى ليبيـا قائـلا: «لابد أن تحاولوا تعديل العقد ليكون توريد الطائرات عام ١٩٧١ بدلا من عـام ١٩٧٢، لأنـه لا يمكننا تأجيل المعركة حتى ذلك العام، لابـد أن تبدأ المعركة ونعبر القناة (هذا) العام ١٩٧٠، أو على الأكثر خلال ١٩٧٠/ ١٩٧١».

ويومها رد العقيد معمر القذافى: «بمجرد عودتى سأجرى اتصالات عاجلة مع فرنسا من أجل تعديل عقد الميراج ليتم توريدها فى المواعيد المطلوبة».

وكان الموقف الفرنسى سياسيا على وجه الخصوص يجعل الولايات المتحدة شبه معزولة داخل اجتماعات مندوبى الدول الأربع الكبرى فى نيويورك طوال سنتى ١٩٦٩ و١٩٧٠، لأن فرنسا كانت تفسر قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ منذ اللحظة الأولى على أنه ينص على انسحاب إسرائيل من كل «الاراضى المحتلة».. وليس «أراضى محتلة» كما حاولت إدارة ليندون جونسون قبل ذلك تفسيره.

مأساة السياسة الأمريكية

وسوف يأتى وقت فى المستقبل، طبقا للوثائق التى يسجلها هذا الكتاب، حينما ستقوم فرنسا بإخطار مصر رسميا بأن رئيس مصر قد خذلها بشكل مذهل، ولصالح إسرائيل التى وقفت فرنسا ضد غزوتها فى يونيو ١٩٦٧ بمثل هذا الوضوح والحزم.. إن فرنسا تستطيع أن تتحمل نتائج هذا الخذلان، ولكن.. هل تستطيع مصر؟!

ولقد كانت الولايات المتحدة تمارس سياستها فى الشرق الأوسط من خلال جهازين رئيسيين هما: وزارة الخارجية ومجلس الأمن القومى الأمريكى.. بينما يقوم الرئيس الأمريكى نفسه بترجيح أحدهما على الآخر.. أو باستخدامهما معا، ولذلك، فبينما كانت وزارة الخارجية تمثل الوجه المعلن للسياسة الأمريكية.. إلا أن مجلس الأمن القومى هو الذى كانت تنبثق منه السياسة الأخرى السرية، وغير المعلنة، والتى تعتمد بالضرورة على القنوات الخلفية وأجهزة المخابرات.

ومن مجلس الأمن القومى هذا انبثقت حرب يونيو ١٩٦٧، والتى كانت تستهدف «إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط» كما توضح المذكرة السرية التى قدمها والت روستو إلى الرئيس ليندون جونسون فى السابع من يونيو ١٩٦٧، وطوال رئاسة جونسون كانت اليد العليا فى البيت الأبيض الامريكى هى للسياسات السرية فى الشرق الأوسط، ولكن، مع مجئ الرئيس نيكسون إلى السلطة فى سنة ١٩٦٩، مر بعض الوقت قبل أن يتأكد من فشل السياسة السرية.. فلا مصر انهارت، ولا جمال عبد الناصر سقط، ولا العالم العربى تسابق إلى عتبات البيت الأبيض، فى نفس الوقت فبدلا من تراجع النفوذ السوفياتى فى المنطقة، فإنه تزايد تماما، على عكس ما كانت تستهدفه تقارير مجلس الأمن القومى الامريكى.

وفى مصر مثلا، ارتفع عدد الخبراء والمستشارين السوفيات من ١٢٠٠ فى يوليو ١٩٦٧، إلى نحو سبعة آلاف فى يوليو ١٩٧٠، بما فى ذلك الوحدات المقاتلة التى تقوم مؤقتا بحماية العمق المصرى من الغارات الجوية الإسرائيلية المتوحشة ضد المدنيين حتى تتفرغ مصر لبناء قواتها المسلحة- والتى كانت أول خطوة من نوعها يقوم بها الاتحاد السوفياتى منذ الحرب العالمية الثانية.

وكانت مأساة السياسة الأمريكية فى تلك الفترة، على حد تعبير جمال عبد الناصر، هى أنها «تنفق» فى منتهى السذاجة، ثلاثين ألف مليون دولار فى فيتنام من أجل وقف امتداد النفوذ الشيوعى فى جنوب شرق آسيا، بينما تترك السوفيات يكسبون مكانة كبيرة فى الشرق الأوسط، وبثمن بخس، «من خلال تدعيم إسرائيل لتصبح القوة العسكرية المسيطرة فى المنطقة».

وبالتدريج، بدأت وزارة الخارجية الأمريكية، فى رئاسة ريتشارد نيكسون، تسترد دورها الطبيعى فى صياغة السياسات الأمريكية فى الشرق الأوسط، وبدعم واضح من الرئيس نيكسون، الذى منع كيسنجر مستشار الأمن القومى فى هذه المرحلة من أى تدخل مباشر فى سياسات الشرق الأوسط على وجه الخصوص، وأصبح الرأى السائد داخل الإدارة الأمريكية هو أن حرب الاستنزاف المصرية تؤدى بشكل ثابت إلى تدهور المصالح الأمريكية فى المنطقة، والنظم القليلة الباقية على علاقات وثيقة مع الولايات المتحدة مهددة بالعزلة، إن لم يكن بالانهيار فعلا كما حدث فى السودان، ثم فى ليبيا- بعد أن سجلت الأخيرة أول طلباتها، وهو إلغاء القاعدة الأمريكية فى هوبلس.

حسابات مصالح

من هنا بدأت المبادرة الأمريكية- التى أطلق عليها اسم «خطة روجرز» و«مبادرة روجرز»- كجنين واضح المعالم منذ سنة ١٩٦٩، وفيما بعد تبين أن سنة ١٩٦٩ بالذات كانت «سنة عاصفة فى تاريخ العلاقات الإسرائيلية الأمريكية»- على الرغم من أن كلا الطرفين تكتم ذلك فى حينها، ولبعض الوقت ظلت ولادة الجنين الجديد متعثرة، حيث كانت الولايات المتحدة ما زالت تأمل- من خلال الورقة التى قدمتها إلى الاتحاد السوفيتى فى ٢٨ أكتوبر ثم الورقة المعدلة إلى مصر فى ٨ نوفمبر ١٩٦٩- فى دق إسفين بين مصر والاتحاد السوفيتى.

وحينما فشلت تلك المحاولة فى حينها، جرى تقديم خطة ومبادرة روجرز بالطريق الطبيعى إلى مصر، وبشرط إبلاغها إلى الأردن فى نفس الوقت كما طلبت مصر، والالتزام بتطبيق نفس المبدأ بالنسبة للجولان بمجرد أن توافق سوريا على القرار ٢٤٢.

وتلك أذن هى الحسابات التى شكلت المبادرة الأمريكية (١٩٦٩/ ١٩٧٠) المعروفة إعلاميا باسم خطة «روجرز» و«مبادرة روجرز». وحسابات المصالح، وانعكاس تغيير حقيقى فى توازن القوى الاقليمى نجحت مصر فى إحداثه بإرادة سياسية فولاذية، إن حرب الاستنزاف كانت هى العامل المحورى فى التغيير، والذى أدى إلى كل التفاعلات الأخرى فى المنطقة وخارجها.

وحينما بدأ الرئيس الجديد فى مصر، أنور السادات، مبكرا فى اتصالاته السرية مع الإدارة الأمريكية، ومن خلال مندوب وكالة المخابرات المركزية، فإن تلك الاتصالات كانت تصب فى مكتب شخص محدد، هو هنرى كيسنجر، مستشار الرئيس نيكسون للأمن القومى.

إنه نفس الشخص الذى قدم استقالته من قبل احتجاجا على نجاح المقاتلين المصريين فى التقدم بشبكتهم الصاروخية نحو القناة، إن كيسنجر لن ينسى مطلقا أن الإدارة الأمريكية وقفت كلها ضده فى محاولاته الملتوية ضد مبادرة روجرز، ومحاولاته جر الولايات المتحدة إلى مواجهة مع الاتحاد السوفيتى بحجة أنه قام بإذلال الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط، ولكن بهدف معاقبة المصريين الذين فشلت إسرائيل، بقنابل زنتها عشرين ألف طن يوميا، وتعادل تأثير قنبلة ذرية، فى منعهم من التقدم بحائطهم الصاروخى نحو القناة.

وليس هناك من دليل على أن السادات كان يعرف- أو حريص على أن يعرف- بذلك الصراع السياسى داخل الإدارة الأمريكية، وقطبيه هما هنرى كيسنجر ومجلس الأمن القومى من ناحية.. ووليم روجرز ووزارة الخارجية من ناحية أخرى.

لكن السادات كان يعرف على وجه التأكيد شيئا أساسيا وجوهريا كان كل المصريين يعرفونه وفخورين به، التضحيات التى تحملتها مصر كلها لكى تصل بحائطها الصاروخى إلى قناة السويس، لقد سارت حرب الاستنزاف فى خطوط متعرجة طويلة، بضربات موجعة تحملتها مصر من إسرائيل، وضربات موجعة أخرى ألحقتها بإسرائيل، وفى النهاية فرضت حرب الاستنزاف أهدافها على الجميع، لقد نهضت القوات المسلحة المصرية من جديد، وفى ثلاث سنوات فقط بينما لم يكن العدو يتوقع مثل هذا النهوض قبل عشر سنوات وبالتزام سياسى محدد، ورسمى، من الولايات المتحدة التى بدأت تفكيرها من اليوم

السابع من يونيو ١٩٦٧ من فكرة «إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط». والذى أوصل هذا الالتزام الامريكى إلى ملفات الحكومة المصرية هو طابور من الشهداء المصريين وتضحيات من جميع الشعب المصرى طوال ثلاث سنوات.

الذين سقطوا فى ميدان القتال، أو داخل مدارسهم ومصانعهم، وكذلك لثلاثمائة ألف آخرين أصبحوا معبئين فى القوات المسلحة المصرية استعدادا لمعركة مقررة سلفا، وتحدد هدفها مقدما، وقال عنها جمال عبد الناصر مبكرا أنها: «ستكون حاسمة وفاصلة فى المنطقة».

همسات

فى سنة ١٩٧١ كان هناك همسات وأحاديث.. هناك جدل يعود إلى السطح من جديد محوره هذا السؤال: هل سنحارب بما لدينا من أسلحة.. أو ننتظر الحصول على المزيد منها؟، فى الواقع أنه سؤال تقليدى كلاسيكى له دائما إجابتان.. هناك جنرالات يصرون على المزيد من الأسلحة حتى ولو كانت ربما لا تأتى أبدا.. وهناك جنرالات آخرون يرفضون من الأصل الدخول فى هذه الدائرة المفرغة.. فحتى لو حصلنا على أسلحة إضافية.. سيحصل العدو أيضا على أسلحة إضافية مضادة.. وبامتداد التاريخ كله لم يحدث أبدا أن بدأ جنرال حربا وهو راض عن أسلحته أو لا يتمنى المزيد منها.

وفى ربيع ١٩٧٢ وفى مطار القاهرة الدولى كان اللواء محمد عبد الغنى الجمسى رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة وأحد رجال اليوم السابع قد انتهى لتوه من توديع أحد الرسميين الأجانب.. فجأة وجد أمامه اللواء احمد إسماعيل رئيس المخابرات العامة.. بعد سلامات وتحيات ومجاملات.. فالجمسى عمل مع أحمد إسماعيل من قبل فى مواقع عسكرية عديدة وهناك مودة متبادلة.

وانتحى احمد إسماعيل بالجمسى جانبا وسأله هامسا: «قل لى يا جمسى.. متى ستحاربون؟

فكر الجمسى لحظة قبل أن يرد: سنحارب حينما تصبح أنت وزيرا للحربية وقائدا عاما للقوات المسلحة.

الجمسى حويط.. صحيح الصداقة عميقة والود متبادل ولكن أحمد إسماعيل ليس عابر سبيل، إنه رئيس المخابرات العامة، وبهذه الصفة لابد أن تكون الصورة واضحة عنده تماما كما هى عند الجمسى، ثم ختم الجمسى الحديث مداعبا: لازم يعنى نتكلم فى السياسة؟.

وفـى أكتوبر ١٩٧٢ وفى اجتماع غير معلن جمع أنور السـادات كبـار قيادات القوات المسـلحة المصرية وهم جميعا عايشـوا المعاناة والتضحيات التـى تم بها إعادة بناء القوات المسـلحة وحجم التضحيات التى تمت خلال بناء حائط الصواريخ المصرى، فالحرب أصلا قرار سياسى، والآن القرار هو: نحارب بالإمكانيات المتاحة.

بعدهـا بيومين أصبح احمد إسماعيل وزيرا للحربية وقائدا عاما للقوات المسـلحة، الآن بدأت عقارب الساعة تتحرك بعد طول توقف، الآن يعود «رجال اليوم السابع» إلى الاندماج فيمـا أعدوا من أجلـه وتدربوا علية وحفظوه عن ظهر قلب وآمنـوا منذ الدقيقة الأولى بأنه الخيار الوحيد.

صورة تذكارية

بعض رجال اليوم السـابع: عبد المنعم رياض.. أحمد حمدى.. إبراهيم رفاعى.. شطا.. تيمور.. محمد.. صليب.. عبد العاطى.. ميخائيل.. الشـوان.. مصطفى.. حسـين.. سيد احمد.. رفعت.. سـعيد.. عبد ربـه.. ويصا.. عبد العال.. محمود.. صدقى.. سـليمان.. إبراهيم.. محمود عوض..و..... و..... و..... أحياء عند ربهم يرزقون.

□□□

بقيت كلمة

فى سبتمبر ٢٠٠٨ استيقظ الأستاذ من نومه لينظر حوله فيجدنى نائما أسفل فراشه بالقرب منه.. مد يده ليمسح بها على رأسى فاستيقظت فرحا بعودة الوعى إليه.. فقد كان مصابا بأزمة حادة نتيجة أزمة نفسية ألمت به نتيجة ابتسار رأيه فى أحد الحوارات التليفزيونية.. كانت أنفاسه مازالت متقطعة.. وجسمه منهكا ووجهه شاحبا.. وأخذ ينظر حوله.. هنا تنبهت إلى ما يريد.. إنه لا يريد كوبا من الماء أو طعاما يتناوله أو حتى غطاء يلتحف به.. على الفور مددت يدى لأناوله الصحف. هنا نهض جالسا على الفراش ولم ينتبه إلى خرطوم الدواء المعلق فى يده. واندمج فى القراءة..

بعد أن صرح له الأطباء بالعودة إلى المنزل. فى السيارة فاجأنى.. تعرف يا طه أنا عايز إيه... اخرج كتاب اليوم السابع إلى الناس..!

قد لا يعتقد أحد أن هناك من هم يعيشون حياتهم ويستمدون قيمتهم وأنفاسهم أيضا من العطاء.. والعطاء لا ياتى إلا عن علم.. والعلم لا يأتى إلا بالبحث والتدقيق والتمحيص.. ثم يتحول الباحث بعد ذلك إلى لسان أو قلم وتحول الأستاذ إلى كلاهما.. وكان القلم هو دفتر أحوال حالة الأستاذ النفسية.. عاش معه وعاش به وسرعان ما تحول الأستاذ نفسه إلى قلم.. أحدث نجاحا لمؤسسته وقت كانت تتباهى بأنها الأولى فى الشرق الأوسط.. وأحدث نجاحا فى كل الصحف والمجلات العربية عندما اضطر قلمه إلى الغربة القصرية عن جريدته فازداد قلمه تألقا.. وتحول إلى مدرسة صحفية تشع الثقافة وتبسط اللوغارتمات.. وظل مصريا عربيا حتى النخاع مؤمنا ببلده، محبا لها على رغم إنه رأى الوجه المظلم لا لشىء إلا لأنه نجح مبكرا. كان كما قال عنه صديقه الراحل أحمد بهاء الدين.. لو فتحت رأس محمود عوض ستجد بداخلها ألف فكرة وفكرة للعطاء وكلها أفكار ضد الرصاص.. ولن تجد بينها فكرة واحدة تخصه هو شخصيا.

والآن حتى لا أنساق وراء حديث ليس هذا وقته.. ولكن لأننى سمعتها منه وشجعنى عليها أحباء وأصدقاء وزملاء عملت معهم، فها أنا ذا أضع كتاب الأستاذ بين أيديهم.. حلمه الذى كان على وشك الدفع به إلى أحبائه رجال اليوم السابع وقرائه الذين كان يستمد منهم قوته وتلاميذه الذين أدين للكثير منهم بالشكر والتقدير.. وأحبائه الذين جعلونى لا

أشــعر بأن جواهرجى الكلمة وعندليب الصحافة وصاحب الأسلوب السهل الممتنع وأستاذ الصياغة والذى ظل يعطى إلى آخر لحظة ما بين صلاة العصر وأذان المغرب من يوم الجمعة صائما واضعا القلم والمصحف والمسبحة ونظارة القراءة على مكتبه على رغم تكاثر الآلام عليه ويودعنا الأستاذ دون استئذان..

شكرا لكل المصريين.. فما شاهدت أحدا أعرفه أو لا أعرفه إلا وترحم عليه.

لقد عاش حياته قلما حرا محبا لمصر وما عليها وما حققته.. فأحبه الجميع.

يبقى أن أشير إلى أن دورى كان مجرد إخراج مادة الكتاب إلى الدار التى اختارها لتكون ناشرة لكتبه.. فإن كان هناك شيء أو ملاحظة أو تقصير فهو منى.

طه عوض

الأخ الصغير

كتب للمؤلف

دراسات سياسية

- ممنوع من التداول- (دار الشروق)- الطبعة السابعة
- أفكار إسرائيلية- (كتاب الاذاعة)- الطبعة الثانية
- الحرب الرابعة- سرى جدا- (المكتب المصرى) الطبعة الثالثة
- متمردون لوجه الله- (دار الشروق)- الطبعة الثالثة
- وعليكم السلام- (دار المستقبل العربى)- الطبعة الثالثة

دراسات أدبية

- أفكار ضد الرصاص- (دار الشروق/ دار المعارف) الطبعة التاسعة سلسلة اقرأ دار المعارف
- شخصيات- (دار المعارف)- الطبعة الثانية
- سياحة غرامية- (دار الشروق)- الطبعة الرابعة
- مصرى بمليون دولار- (مكتبة الانجلو)- الطبعة الثانية
- أوراق إلى حبيبتى- (دار الشروق)- الطبعة الاولى
- من وجع القلب- (دار المعارف)- الطبعة الأولى
- بالعربى الجريح- دار المعارف

دراسات فنية

- أم كلثوم التى لا يعرفها أحد- (كتاب اليوم)- الطبعة الرابعة
- محمد عبد الوهاب الذى لا يعرفه أحد- (دار المعارف)- الطبعة الثالثة

فى الرواية والقصة

- أرجوك لا تفهمنى بسرعة- (روز اليوسف)- الطبعة الثالثة
- شئ يشبه الحب- (كتاب اليوم) الطبعة الاولى

تحت الطبع

- مختارات
- مع محمود عوض